٤٥٤

أفكار غيرت العالم

٦

أحمد زويل

عاشق الزمن

الطبعة الثانية

بقلم :

د. منال القاضى

دار المعارف

رقم الإيداع	٢٠١٢ / ١٦٦٩١
الترقيم الدولي	ISBN 978 - 977 - 02 - 7659 - 4

٣١/ ٢٠١٢ /٧

طبع بمطابع دار المعارف

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة – ج . م . ع
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧– فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

مَنْ هوَ الدكتور أحمد زويل؟

- عالـم مصرى حاصل على الجنسـية الأمريكية، ولـد فى مدينة دمنهور، وعاش طفولته فى مدينة دسوق التابعة لمحافظة كفر الشيخ.
- حاصل على بكالوريوس العلوم، مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٧..
- حاصل على ماجيسـتير فى العلوم من جامعة الإسـكندرية عام ١٩٦٩.
- حاصل على درجة الدكتوراة فى الفلسـفة جامعة بنسلفانيا فلاديلفيـا، الولايات المتحدة، والعديد مـن الدكتوراه الفخرية من مختلف جامعات العالم.
- حائز على جائزة نوبل عام ١٩٩٩ فى الكيمياء.
- متزوج من ديما الفحام وهى طبيبة سورية.
- لديه ابنتان هما مها وأمانى، وولدان هما هانى ونبيل.

من أقوال أحمد زويل المأثورة:

البصيـرةُ وصفاؤهـا من أعظم النعـمِ التى يهبها اللـه للعلماء والفنانين.

فكّر الدكتـورُ أحمدُ زويل وهو جالسٌ وحيـدًا فِى غرفةِ مكتبه يتأمـلُ خريطةً ملونـةً للعالم: «مَنْ كانَ يصدقُ أنَّ عالمهُ سـيكونُ ملىء بالمدن؟».

كانتْ أمّ كلثوم تشـدُو وكانَ زُويل ينصتُ إليهَا، ويسترسـلُ فى أفكارِه «هناكَ مدنٌ مرّ عليهَا دونَ أن تتركَ داخلَه أثرًا، ومدنٌ توقّف عندهَا وتعلّم، ومدنٌ أحبهَا واستمدَّ منهَا قوتَهُ الروحيّة».

دقّـق فِى الخريطَةِ كأنـهُ يبحثُ عَنْ مدينةٍ بعينهَـا. «أينَ هِىَ، ليسـتْ مرسـومَة بوضُوحٍ. قَدْ تكونُ هذِه النقطـةُ الصَّغيرة». كانَ زُويل يتكلّمُ عَنْ دسـوقِ المدينةِ التِى شـهدتْ طفولتهُ، فكّر: «لوْ قُدر لهُ أنْ يرسمَ خريطَة العالمِ وِفق المكانَة التِى تحتلهَا كلُّ مدينةٍ فِى قلبِه، لأعطَى لدسوق مسَاحة شاسعَةً».

انسـابتِ الأفكارُ فِـى رأسِ الدكتور أحمد زويل، كانَ يسـتعيدُ مشاهدًا منْ مدينةِ طُفُولته، أشجَار البرتقالِ، مسجِد سيدى إبراهيم الدسُوقِى، النيل العظيم، وَلعب الكرةِ معَ أقرانِه.

وفجأةً ابتسـمَ وكأنهُ تذكَّرَ شـيئًا طريفًا، ففِى أحدِ الأيامِ دخلَ عليهِ وَالداهُ، وهمَا يحملانِ يافطـةً كتبَ عليهَا بخطٍّ أنيقٍ (دكتور

أحمد زويل). داعبهُ أبوهُ قائلًا: «أينَ تريدُ أنْ أضعَ اليافطةَ يا دكتور أحمد؟»

يذكرُ كيفَ قفزَ يومهَا فِى فرح، أشـار: «هُنا». وكانَ يُشـيرُ إلى مسَاحةٍ واسعةٍ وعاليةٍ منْ حَائطِ غُرْفته.

لقـدْ حفّزتهُ هذه اليافطةُ، فانكبَّ عَلى دُروسـه فى نَهَم، وكانَ فِى أحيَان كثيرةٍ يختلسُ النظرَ إليهَا، ويسرحُ بعيدًا، هلْ هذَا ممكنٌ، أيمكنُ أنْ يُناديهِ الناسُ ذاتَ يوم بدكتور أحمد زويل. وكانتْ أمُّهُ تقطعُ عليه خَلْوتـهُ فِى أحيانٍ كثيـرةٍ وتجيبهُ كأنهَا تقرأُ أفكارهُ وتقولُ: «سـتكونُ دكتـورًا ذاتَ يوم يَا أحمد بإذنِ الله، وسـأراكَ يومًا فِـى أَعْلى مَكانةً، وسـتفتخرُ بكَ دُسـوق كلُّهَا، فأنتَ تثابرُ عَلى طلـبِ العلم، والله معَ المجتهد، ولكنْ لا يكفِى الاجتهَاد فِى المذاكرةِ يَا أحمد، يجبُ أنْ يقترنَ هَذا بالإيمَانِ بالله، وَالتوكلِ عَليْه، وأَنْ تعامل الناسَ بالمعْرُوف».

انتقـلَ بذكرياته إلى موقفٍ آخرَ، وضحكَ: «كيفَ أتتهُ الجرأةُ أنْ يفعلَ ذلـكَ». تذكَّرَ كيفَ كتبَ خطابًا للرئيـس جمَال عبد الناصر، يُعربُ فيهِ عَنْ حُبه وتأييده. حدثَ هذَا عام ١٩٥٦، كانَ الفرحُ يعمُّ مصرَ فِى ذلكَ الحين، لقدْ نالتْ اسـتقلالهَا، وتَمَّ إجْلاءُ الانجليز إلى غيرِ رجْعةٍ، وَتولىَّ الحكمَ فِـى مصرَ جمالُ عبدُ الناصر، ابن الطَّبقَة

الوسطى، فبعثَ الأملَ فى نفوسِ المصريينَ، وانفتحَ البابُ أمامَ الكثيرينَ منْ أجلِ التعلُّم، والحُلْم بمُستقبلٍ أفْضَل.

كانتِ الرسالةُ التى كتبهَا أحمد زويل فى ذلكَ الوقتِ عفويَّة. التقطَ عباراتهَا منْ أبويْه وجيرانه، ومعَلميه فى المدرسة، فكثيرًا مَا كانُوا يقولونَ عقبَ كلِّ خطبةٍ منْ خُطبه، ربنَا يُوفقكَ يَا رَيِّس، وحفظكَ الله لمصْرَ. فكتبَ له (ربنَا يُوفقك ويُوَفق مصر).

وقدْ أثبتَ جمالُ عبدُ الناصرِ فى ذلكَ الوقتِ مصرِّيتَهُ ووطنيتَهُ فبعثَ بردٍّ عَلى رسَالة أحمد زويل، ولمْ يكنْ فى ذلكَ الوقتِ تجاوزَ العاشرةَ منْ عُمره.

تذكّر أحمد زويل تفاصيلَ الواقعَة، أبوهُ يُعطيه الرسالةَ وهوَ غَيْر مُصَدق، بعدَ أنْ يقرأهَا عَلى جمْع غفيرٍ منَ الأقاربِ والأَصْدقاء.

شعرَ ساعتهَا بالسعَادة والتميُّز، فجمالُ عبدُ الناصر الذى سكنَ قلوبَ جميعِ مَنْ حولهُ، وبعثَ ببصيصِ الأملِ لكلِّ أبنَاء مصْر، ووَعَدهم بغدٍ وَاعدٍ فى أحضَان الوطنِ. هذَا الزعيمُ العظيمُ خصّهُ برسالةٍ، اسْتهلّهَا بقوله (ولدى العزيز أحمد).

لازالَ يحتفظُ بهذِه الرسَالة القريبَة منْ نفسه، قامَ الدكتورُ أحمدُ زويل، وأخرجَ منْ أحدِ الأدرَاج ورقةً مطويّةً بعنَايةٍ.

كانتْ كلماتُ جمالُ عبد الناصر رقيقةً ختمهَا بقولهِ (الله أكبرُ والعـزةُ لمصْرَ). تـلألأتِ الدمُوع فِى عَيْنى أحمـد زويل وتمتمَ. «مصْـر... مصْر». شـعرَ بقلبهِ يَخفقُ. وعَاد يُفكـر. «مصرُ كَانت- دائمًـا- المنـارةَ والوطـنَ، وإذَا كانَ قدْ نجحَ مُؤخـرًا هو وفريقُه البحْثـى، فِى صنْـع كاميرَا بالغةَ السـرعَة، تلتقطُ حركـةَ الذَّرَّاتِ بسـرعَة الفمتوثانيـة، وَهِىَ أصغـرُ وَحْدةٍ لقياسِ الزمـنِ، وصَار ممكنٌ بواسـطتهَا الدخُول إلى عَالم الذرَّات والجزيْئَات الصَّغيرة وَتصويرهَـا، فقدْ بـدأَ المصريُّونَ القدمَاء رحْلـة الاهتمَام بقياسِ الزمنِ منذُ آلافِ السنينَ».

فكـرّ أحمد زُويل فِى القدرةِ اللَّامحـدُودةِ التى وضعهَا الله فِى العقلِ البشَرى، تجوّل فِى أنحَاء الغرفةِ وهوَ ممسكٌ ببعْض الصحفِ القديمةِ، توقـفَ عندَ صَحيفة نيويُورك تايمـز الصَّادرة عام ١٩٨٧ وقرأَ المَانشيت المكتوبَ.

(لقطاتٌ فتوغرافيةٌ للروابطِ الكيميَائية أثناءَ تكونهَا)

كانتِ السـطورُ التاليةُ تتحدثُ عَنْ إنجازهِ العلْمِىِّ. نقرَ الطاولةَ القريبةَ، وَاتسعَت ابتسامتهُ وهوَ يفكرُ وقالَ:

«إنَّ الطاولةَ تبدُو لمنْ ينظرُ إليهَا ثابتةً، ولكنهَا فِى الحقيقةِ تتكونُ منْ جُزيئات مُتحركة بَالغة الصغرِ تُسمّى ذرّات».

لقدْ كانَ مفتونًا طوَال حياتهِ بدنيَا الذرّاتِ، ويتبادرُ إلى ذهنهِ العديدُ منَ التساؤلاتِ مثل كيفَ تتحركُ، وكيفَ تتشكلُ الروابطُ فيمَا بينهَا، وكيفَ يُعاد تشكُّلِ هَذه الروَابط أثناءَ التفاعلَاتِ الكيميَائيةِ المخْتلفَة.

تنهّد «إيه يا ديمقريطس».

كانَ يفكرُ فِى ديموقريطس العَالم اليونَانى الذِى عاشَ قبلَ الميلادِ، وهوَ أولُ منْ أعلنَ أنَّ المادةَ تتكونُ منْ جُزيئات صَغيرةٍ تُسمى ذرّات. هلْ كانَ يتصوّر أنّ التقدمَ العلمىَّ سيصلُ إلى حدِّ تصْوير الذرَّات أثناءَ الحركةِ وَالروَابط التِى بينهَا؟!

لقدْ سبقَ هذَا الكشفَ العلمىَّ جهدٌ شاقٌّ منَ العديدِ منَ العلمَاء، إطَّلَعَ أحمدُ زويل أثناءَ رحلةِ كفاحه العلمىِّ عَلى الأبحَاثِ التِى أُجريت فِى هذَا المجال، ممَّا مهّدَ لهُ الوصُول إلى إنجَازهِ الضَّخْم. فقدْ كانَ اكتشافُ رُونتجن للأشعَة السينية عام ١٨٩٥ بمثابةِ فتْح للأبحَاث التِى أُجريت عَلى الجُزَيئيات، تمكّن بعدَ ذلكَ العلمَاءُ منَ

اكتشافِ أنَّ الذرةَ تتكونُ منْ ثلاثِ مُكونات أصْغر وهم: النيترونات، والبروتونات، والإلكترونات.

واستطاعَ العلماءُ فِى ثمانيناتِ القرنِ العشرين منْ إجراءِ أبحَاث عَلى الذرةِ وَأجزائهَا بصُورة أكثرَ تفصيلًا.

انكـبَّ أحمد زويل عَلى دِرَاسـة كلِّ هذِه الأبحَاث وفى كلِّ مرة كانَ يلحُّ عليهِ السـؤالُ نفسُـه. «كيفَ تتحركُ الـذرّاتُ ومَا طبيعةُ الروابطِ بينهَا؟، وهلْ يمكنُ تَصْوِير التفاعُلَات الكيميَائية لرصْدِ كيفَ تتكونُ الروابطُ الجديدةُ بينَ الذرّاتِ؟؟».

لمْ تكنْ تسـاؤُلات زويل مُجرّد تساؤُلات ولكنهَا تَحدِّيات للعَالمِ الجَاد، تطلّبتْ منهُ العديدَ منَ الأبحَاثِ وَالتجَاربِ العلميّةِ.

وقد اسـتدعَى منـهُ علـمُ الفيمتوثانيـة الذى أسسـهُ وقامَ بتطويرِه، أَنْ يكونَ ملمًّا بعلُوم الذرةِ وَالطيفِ وَالإشـعاع وَالليزر وميكانيـكَا الكَم. لمْ يكنْ طريقهُ خاليا منَ الأشـوَاكِ. كانَ يلتقىَّ فِى كلِّ زاويةٍ أو منعَطفٍ بمنْ يُشـكك فِى أهميّةِ أبحَاثه. ولكنَّ تلكَ الشـكوكِ كَانت تزيدُ خيالَهُ جَـذوةً وَتجعلهُ يتفانَى أكثرَ فِى البحْث العلْمى.

كانَ يعرفُ أنَّ نجاحَ أبحاثِه معناهُ انقلابٌ فِى دنيَا الطبِّ والفضَاء وَالاتصَالات وعلُوم التكنولوجيَا.

وتمكَّنَ أخيرًا مِنْ تحقيق الحلْم، تنهّد أحمد زويل.

«مَنْ كانَ يُصدق أنهُ سيحققُ يومًا مثلَ هذَا الانجازَ، وأنهُ سيتمكّنُ مِنْ تَصْوير الذرَّاتِ أثناءَ حركتهَا وبكاميرَا تعملُ بسرعَة الفيمتُوثانية؟!».

تمتمَ أحمدُ زويل مبْهورًا بعظمَة الخالقِ:

«مُنتهى الخيَال وَالإعجَاز العلْمى، فالفيمتُوثانية جزءٌ منْ ملْيون بليون منَ الثانية أىْ واحد يسبقهُ خمسَة عشرَ صفْرا. ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠».

قامَ وتجوّل فِى مكتبِه، توقّف أمامَ مَكتبته الكبيرةِ، وَتناولَ أحدَ الكتبِ التاريخيّة التِى تتحدثُ عنْ مصرَ الفرعُونيةِ قلّبَ الكتابَ عَلى مهَلٍ وعَادَ يُؤكدُ داخلَ نَفسهِ. «إنَّ المصريينَ القدمَاءَ، هُمْ أولُ من التفتَ لأهميَّةِ الوقتِ، وقامُوا بقياسِه، فكانتِ السنةُ تبدأُ عِنْدهم بفيضَانِ النيلِ، وكانُوا يتنبّأونَ بموعدِ الفيضَان مُستعينينَ بعلْم الفلكِ، فقدْ كانَ حدوثُ الفيضَان يتزامنُ معَ ظُهور نجْم

الشِّـعْرى اليمَانية. وَالفراعنةُ هُم أولُ منْ قسّـم السنةَ إلى اثنى عشـرَ شـهرًا، وبعدَ ذلكَ تمكّنُوا مـنَ ابتكارِ أدوَات سَـاعدتهم عَلى قياسِ الزمَن، فصنعُوا أقدمَ سَـاعة فِى التارِيخ وهىَ الساعةُ الشمسـيةُ وبعدَ ذلكَ أرادُوا قياسَ الوقتِ ليلًا فابتكرُوا السـاعةَ المائيَّة.

تنهّد الدكتورُ أحمدُ زويل وفكّر. «لقدْ مكّنهُ شـغفُه بالتارِيخ منَ الاطِّـلاع عَلى معلُومات مُبهرةٍ عنِ المصْريينَ القدمَاء، كانَ فخورًا بكونهِ مصريًّا، فهوَ ابنٌ لحضَارةٍ عَريقةٍ شـهدَ لهَا العالمُ بالريَادةِ فِى مُختلفِ المجَالات. وَلكنْ كيفَ يستعيدُ وطنهُ الحبيبُ تلكَ المكانةِ فِى العصْرِ الحَديثِ؟».

طرقَ البابَ ودخلَت زوجتهُ السُّـوريةُ الأَصْل «ديما»، نظرَ إليهَا فِى مَودّة. «إنهَا المرأةُ الحلـوةُ التِى خَطفت قلبَهُ بدماثتهَا وَخلُقها الرَّفيعُ، وذكائهَا النَّادِر».

اقتربتْ منهُ وهمسَتْ. «هَل أنتَ مشغُول؟».

أجابهَـا: «أبـدًا، أنا كمَا ترينَ أسـتمعُ إلى أُمِّ كلثـوم وأفكرُ فِى مصْرَ».

سرحَتْ «ديما» وَقالتْ: «لقدْ عشتُ فِى مصرَ كمَا تعرفُ، وأحملُ لهَا أجملَ الذكريَـات» ثمَّ قالتْ لهُ مداعبةً: «لوْ لمْ تكنْ مصريًّا لمَا تزوجْتكَ بهذهِ السُّرعَةِ».

نظرَ إليها فى حَنان وقالَ:

« الوطنُ العربىُّ أُمة واحدةً، ولا تنسـى أنَّ سوريَا وَمصر اتحدتَا ذاتَ يوم، وتحتَ مُسمّى الجمهورية العربيّةُ المتحِدَة».

أومـأتْ «ديما». «نَعَمْ... نعم، فى عهـدِ جمَال عبدَ الناصرِ كانَ حُلْم القوميَّة العربيَّة يُسيطرُ عَلى الجَميع».

ثـمَّ قالتْ مازحَةً: «ولكنْ قُلْ لِـى، ألا تتوقعُ الحصولُ عَلى نُوبل هذَا العَام؟».

ضحـكَ أحمدُ زويل عاليًا ثُم قالَ: «أنَا لَا أفكرُ فِى الأمرِ إطلاقًا، أنتِ تعرفينَ أننِى أجدُ سَـعادتِى فِى البحْـثِ العلْمى دونَ النظرِ إلى الجوَائزِ».

ضحكتْ «ديما» وقالتْ: «أعرفُ... أعرفُ، أتذكرُ فِى شهرِ العسلِ حينَ ضبطتكَ ساهمًا، وسألتكَ عَنِ السببِ، أجبتنِى بأنكَ اشتقتَ إلى مجْموعتكَ البحْثية، لقدْ كنتَ قاسيًا فِى رَدكَ وَلكنى سَامَحْتكَ».

أمسكَ الدكتورُ أحمدُ زويل بيدِ زوجتهِ وقالَ: «لأنكِ إنسانةٌ عظيمَة».

قالتْ فى مرَحٍ: «إنَّ أبحاثكَ العلميةَ تأخذكَ كثيرًا منِّى، وأنَا أوافقُ عَلى ذلكَ، وهوَ قدرُ كُلِّ امرأةٍ تتزوجُ منْ رجلٍ عظيمٍ مثلكَ».

نظرتْ إليه وقالتْ فِى ثقةٍ: «لدىَّ شعورٌ قوىٌّ أنكَ سوفَ تحصلُ عَلى نُوبل هذَا العَام».

انفتحَ البابُ فجأةً ليدخلَ «هَانى» وهوَ يصيحُ فِى طفولةٍ: «مَامَا... مَامَا أينَ أنتِ؟».

اقتربَ زويل منَ ابنهِ وحملهُ بينَ ذراعيْهِ فى حنَان وقالَ: «وَبابَا، ألا تسألُ عنه، ألا تقبلهُ قبلةً وتقولُ له أحبكَ».

قالَ هانِى فِى عَفوِيّة: «أحبُّكَ».

تذكّر زويل لحظةَ ميلَاد ابنهِ هَانى، لقدْ كانَ أول مَنْ يحملهُ بعدَ الطبيبِ، فعلَ الأمرَ نفسَهُ معَ ابنهِ نَبيل، قالَ لهُ مداعبًا: «لقدْ كَبرتَ».

التمعَت عينَا هَانى بسعَادةٍ، فعادَ زويل يخاطبُ ابنهُ هَانى: «أينَ أخوكَ نَبيل، هيّا قُلْ لِى».

أشارَ هانى بيديْه الصغيرتَيْنِ وقالَ: «هناكَ».

التمعَت عيناهُ فجأةً كأنمَا تذكّر شيئًا مهمًّا، فقفزَ منْ بينِ ذرَاعى الدكتور أحمد زويل، وَالتفتَ إلى أمه وأمسكَ بيديْهَا وقالَ: «هيَّا».

ضحكتْ ديمَا: «إلى أينَ، ألنْ تقولَ لماذَا؟».

وَلكنهَا تبعتهُ فِى النهايةِ، فهىَ مُستعدة- دائمًا- أنْ تدخلَ فِى عَالم طفولتهِ السَّاحِر المَلىء بالشقاوةِ وَالمفاجَآت المدْهشةِ احتضنهمَا زويل بعينيْهِ، حتَّى اختفيَا. أغلقَ بابَ مكتبهِ وضحكَ مِنْ قلبهِ.

ooo

كانَ الدكتور أحمد زويل نائمًا، حينَ رنَّ الهاتفُ فِى منزلهِ (بباسيدينيا) فى ولاية كاليفورنيا. اخترقَ صوتُ الهاتفِ أحلامهُ، فلمْ يستيقظْ منْ فَوره، ولكنَّ الهاتفَ استمرَّ فِى الرنينِ. قامَ الدكتورُ زويل منْ نومهِ قلقًا، وَتساءلَ: «كَم السَّاعة؟».

كانَ المنبهُ يشيرُ إلى الخامسَة وَالنصف صباحًا. خطرَ لهُ أنهَا مُشكلة بحْثية، تواجهُ أحدَ طُلابه، واسْتعادَ بذَاكرته حَادثًا وقعَ منذُ سنواتٍ، فقدْ قامَ بإيقاظِ أحدِ أسَاتذته فِى نحْوِ الرابعَةِ صباحًا، كىْ

يستفسرَ منهُ عنْ مسألةٍ علميّةٍ. ضحكَ الدكتورُ أحمدُ زويل وفكّر وهوَ يتناولُ الهاتفَ: «إنهُ جنونُ العلمِ وروْعته، وَتشويقه».

جاءهُ صوتٌ عميقٌ يستفسرُ: «الدكتورُ أحمدُ زويل منْ فضْلكَ، هلْ يمكنُ لِى أَنْ أحَادثهُ؟».

أجابَ دونَ أنْ يتمكنَ منْ تحديدِ صَاحبِ الصَّوتِ: «أنَا أحمدُ زويل، أى خدمَة».

جاءهُ الصوتُ أكثر نعومَة هذِه المرّة: «حقًّا أنتَ زُويل العالمُ الفذّ، أنَا السكرتيرُ العامُّ للأكاديميّةِ السويديّةِ للعلُوم».

خطرَ لأحمد زويل خاطرٌ، لمْ يلبثْ أنْ استبعدهُ، كانَ يريدُ منْ مُحدثه تفسيرًا أكثرَ فقالَ: «أهلًا وسهلًا».

بادرهُ الصوتُ قائلًا: «لقدْ تقررَ منحكَ جَائزة نُوبل فى الكيمياءِ لهذَا العام ١٩٩٩».

كانَ أحمد زويل يعلمُ قيمةَ أبحاثه، وَلكنَّ تقديرًا كهذا بمنحه جَائزة نُوبل مُفردًا لهُ نكهةً مُختلفَة.

أطلعهُ السكرتيرُ العامُّ للأكاديميةِ السويديةِ عَلى أسبابِ منحه الجَائزة فقال: «لقدْ توصّلتَ يا دكتور إلى رصْد مَا يحدثُ فِى

التفاعلَات الكيميائيةِ ومَا يحـدثُ فِى دنيا الذرّات والجزيئَات، منْ خلالِ الكاميرَا التـى تمكّنتَ منْ صنعهَا وَالتى تعملُ بومضَات ليزر بسـرعةِ الفمتُوثانية، واضعًا بذلكَ أُسـسَ علمِ الفمتُوثانية ومطلقًا العنـانَ للخَيالِ فى دنيَا العلومِ، بعدَ أنِ اسـتطعنَا تصْوير مَا يحدثُ فِى دنيَا الذرّات والجزيئاتِ».

ضحكَ سكرتيرُ الأكاديميةِ السويديةِ قائلًا: «أنتَ عالمٌ عظيمٌ».

انقلبتْ حياةُ أحمد زويل بعدَ إعلانِ فوزِهِ رسميًّا بجائزَةِ نُوبل.

انهَالت المكالمَاتُ التليفونيةُ عليهِ، الكلُّ يُهنئهُ، والكلُّ فرحٌ بفوزِهِ.

أتتـهُ التهنئةُ مِنْ مصرَ حَـارّة، وحَادثَهُ رئيسُ جمهوريّة مصرَ العربيّة الرئيس حُسنى مُبارك، كانتْ مُكالمةً ودُودةً، أشعرتُه بالدِّفءِ.

تضَاعفتْ سـعادتهُ وهوَ يقرأُ آلافَ الرسَائلِ التِى امتلأَ بهَا بريدهُ الإلكترونى، اغلبهَا منْ شبابٍ مصْرىٍّ، يعلنُ لهُ فرحتهُ وفخرهُ بكونهِ مصريًّا.

كانَ هناكَ شغفٌ باكتشَاف الجَانب الإنسَانى لشخْصيتهِ.

وَكانَ هناكَ الكثيرُ منَ الأسـئلةِ، التِى تطلبـتْ منهُ أنْ يفكرَ فِى مشوَار حياتهِ كَىْ يستخلصَ إجابةً.

سـألهُ أحدُ الشَّـباب المصريينَ الذيـنَ التقَى بِهِـمْ فِى إحدَى الندوَات: « ما هىَ وصفةُ النجَاح؟ ».

أُعجب أحمدُ زويل بالشـابِّ، فهوَ يبدُو طموحًا، متطلعًا للأفضلِ ولكـنْ بماذَا يُجيبـه، حقًّا ما هىَ وصفةُ النجَـاح؟، لقدْ كانَ النجاحُ فِى طُفولته معنـاهُ أنْ ينالَ أعْلى الدرجَات فِـى الامتحَانات، وفِى شبابهِ حينَ التحقَ بكليةِ العلُوم جامعَة الإسكندريّة، كانَ حريصًا أنْ ينالَ تقديرَ امتيازٍ، وكانَ الأولُ عَلى دفعته، وحينَ سافرَ إلى أمريكَا تغيرتِ الظروفُ وَلكنهُ اسـتطاعَ التأقلمَ، واستمرَّ تفوقهُ، ولكنْ بعدَ حُصولـه عَلى «نُوبل» واتسَـاعِ خِبرتهِ ومفاهيمهِ عـنِ الحياةِ بماذَا يجيبُ هذَا الشابّ؟.

منَ الظلمِ أنْ يحصرَ النجاحَ فِى التفوقِ المهْنِى وَالمعْرِفى.

نظرَ إلى الشابِّ وقالَ:

«القدرةُ عَلى حبِّ الآخرينَ نجاحٌ، والصداقةُ الحقيقيةُ نجاحٌ».

قاطعهُ الشَّاب: «ولكنْ يا دكتور.....».

فنظرَ إليه زُويل فِى أبوّةٍ حَقيقيّةٍ. «وتمتعكَ بصحّةٍ جيدةٍ، تمكنكَ منَ التفكيرِ السليمِ وَالعطَاء، ألاَ يعدُّ ذلكَ فِى رأيكَ نجاحٌ؟».

تحرّكت شفتَا الشَّاب مذهولاً ولمْ يتكلمْ فقالَ لهُ زُويل:

«الإنجـاز العلمىُّ أمرٌ مُدهش، ولكنَّ هذَا لا يمنعُ مِنْ بذْل جهدٍ مُوَازٍ لهُ لبناءِ حيَاةٍ سعيدةٍ مُدْهشةٍ، وَالتمتُّعِ بمَا حبانَا الله منْ صحّةٍ وأصْدقاء وَأسرَةٍ وَمشاعرَ صَادقةٍ».

كانَ الشَّاب يتابعُ العالمَ الكبيرَ باهتمَامٍ فاستمرّ زُويل يقولُ:

«الإنجازُ العلمىُّ يسـاعدُ عَلى كشـفِ الأمرَاضِ وصناعَة الدوَاء، وجعْل الحيَاة أكثرَ رفاهيةً وَلكنْ منَ الضرورىِّ أَنْ يحتفظَ الإنسَـانُ بإنسَـانيتهِ، ويتذوّقَ الجمالَ والفـنَّ، ويلتحمَ بالحيَـاة، يؤثرُ فيهَا وَيتأثرَ بهَا.

بـادرهُ الشَّـاب قائلًا: «واضحٌ أنـكَ لمْ تعشْ حياتـكَ بعيدًا عنِ الناسِ».

وَافقهُ زويل: «هذَا ضرورىٌّ، فالعالمُ إنسـانٌ قبلَ أىِّ شـىءٍ، وأنَا أَستمتعُ بسـماعِ الموسـيقَى، وَالغناءِ وخاصّة المطربَةَ المصْريةَ أم كلثوم، وَأقرأُ الكتبَ الأدبيّة الرفيعةَ مثل مُؤلفات أديب مصر نجيب محفوظ، وهوَ بالمناسـبَةِ حائزٌ أيضًا عَلى جَائـزة نُوبل فِى الآداب عام ١٩٨٨».

ضحكَ الدكتورُ أحمدُ زويل واستأنفَ حديثهُ:

«أنَـا ثالثُ مصْرى يحصلُ عَلـى «نُوبل» بعدَ الرئيس محمد أنور السـادات الحائز عَلى «نُوبل» فِى السـلام ١٩٧٩، ونجيب محفوظ الحائـز عَلى «نُوبل» فِـى الآداب ١٩٨٨، وثانِـى عَالم يحصلُ عَلى نُوبل فى العلُوم فى العالم الإسـلامىِّ، بعد البرُوفسـور الباكستانى عبد السلام الحائز على «نُوبل» فى الفيزياء عام ١٩٧٩.

○○○

دخلَ أحمدُ زويل إلى غُرفةِ مكتبهِ، سيتسلمُ جائزةَ «نُوبل» خلَال أيام، ولابدَّ أنْ يعدَّ كلمةً بهذهِ المناسبَة. اطلعَ عَلى تصْمِيم ميدالية نُوبلَ، الذى وضعهُ الفنـانُ اريك لندبرج عام ١٩٠٢ واندهشَ. فقدْ طالعـهُ وجهُ إيزيـس، التى قدسـهَا المصريونَ القدمـاءُ، وتناقلُوا أسطُورتهَا هىَ وزوجهَا الحبيب أوزُوريس.

تسـاءلَ زويـل: «تُرَى مـاذَا أرادَ لندبـرج أنْ يقـولَ بتصميمهِ البديعِ».

اسـتعادَ زُويل داخلَ رأسـهِ تفاصِيلَ الأسـطُورةِ، فهنَـاكَ إيزيس وَأوزوريس يمثلانِ الخيرَ، وفِى الجانبِ الآخرِ يوجدُ سـت إله الشـرِّ.

ست يكرهُ أوزوريس ويكيدُ لهُ، فيدعوهُ إلى مأدبةٍ فاخرةٍ، وَيعدُّ تابوتًا بالغَ الروعةِ يُعجب به كلُّ منْ حضرَ الاحتفالَ، فيعلنُ ست أنَّ التابوتَ سيكونُ هديةً لمنْ يجدهُ مطابقًا لمقايسَ جسده. ويجربُ الجميعُ الدخولَ فى التابوتِ دونَ جدوَى، وأخيرًا يدخلُ أوزوريس، فيغلقُ ست التابوتَ وَيُلقى به فِى مكانٍ مَجْهول. تعلمَ إيزيسُ بمَا حدثَ وتبدأُ رحلةَ البحْثِ عَنْ حبيبهَا حتَّى تجدَ التابوتَ، وتفتحهُ، وتقرأُ التعاويذَ عليه، فتعودُ إليهِ الحياةُ. يعيشَان سويًّا فى سعَادة وَيُنجبَان ابنهمَا حُورس، وَلكنَّ ستَ الشريرَ يكيدُ مرةً أخرى لأوزوريس ويمزِّقُ جسدهُ هذهِ المرّة، ويُلقى بهِ فِى أماكنَ مُتفرقة، كىْ لا تتمكنَ إيزيس منْ إعادتهِ إلى الحياةِ مرةً أخْرى. ولكنَّ إيزيس تجوبُ مصرَ منْ أقصاهَا إلى أقصاهَا وتجمعُ جسَد زوجهَا الحَبيب، وتعيدُهُ إلى الحياةِ مرةً أخرَى وَينتصرُ الخيرُ حينَ يقتلُ ابنهَا حُورس ست الشريرَ.

فكرَ زُويل: «هذِه هىَ الأُسطورةُ، فماذَا أرادَ ليندبرج أَنْ يقولَ؟. هَلْ أرادَ تأكيدَ مَا تمثلهُ هذِه الجائزةَ منْ مَعَانٍ نبيلة، وَأنهَا تمثلُ وَفاء وإخلاصَ إيزيس وَأيضًا دأْبهَا وَإرادتهَا الصّلبةَ، التى مكنتهَا مِنْ تحقيقِ هدفهَا وَاستعادة حبيبهَا رغمَ صعُوبةِ ذلكَ؟».

بدَا «زُويل» مقتنعًا بهذَا الاستنتاجَ، وفكّر: «ليسَ هذَا فحسْب، وَلكنَّ إيزيس وزوجهَا يمثـلانِ الخَيْر، فجائزةُ نُوبل أيضًا تُكافئ كلَّ عالمٍ يسعَى إلى خيرِ البشريَّة».

تناولَ «زُويل» كُتيبًا صغيرًا يسردُ باختصارٍ حياةَ «ألفريد نُوبل» الذِى أَوْصى بإنشَاء جَوَائز نُوبل..

لقدْ كانَ ألفريد نوبل عَالم سويدى ولدَ فى استوكهولم عاصمَة السويدِ عام ١٨٣٣. وتمكّن منَ اختراعِ مَادة الدِّينَاميت عام ١٨٦٦، وكانَ فى نيتهِ أنْ يَستخدمَ اختراعهُ هذَا فِى أغراضٍ سلميَّة، مثل حفْر المنَاجم وَشقِّ القنوَات. لقدْ أحدثَ اختراعُهُ ثَورةً مَكّنتهُ منْ جنْى مَبَالغ كبيرةٍ من المالِ، وَلكنْ آلمَهُ أنْ يُسَاء استخدَام اختراعهِ فى الحرُوب وَقَتْلِ الأبريَاء.

ولذلكَ فقدْ أوْصى أنْ تُستثمرَ ثروتهُ بعدَ موتهِ فى مشروعَاتٍ تُحقق ربحًا، ومنْ هذه الأربَاحِ تُمنح جائزةُ «نُوبل» سنويًّا لكلٍّ منْ سعَى فى رخَاءِ وسعَادة البشرِ، وذلكَ فِى الكيميَاء وَالفيزيَاء، وَالفسيُولُوجيا والأدب وَالسّلام العَالمى.

أغلقَ «زُويل» الكتيبَ وفكّر: «لقدِ استخلفنَا الله فِى الأرضِ لإعمارهَا، وتحْقيق الرّخَاء والسّلام بينَ البشرِ».

تنهّد وهزّ رأسهُ فى أسَى. «هناكَ للأسف منْ يُسئ استخدَامَ العلْم، فالطاقةُ الذريَّةُ عَلى سبيلِ المثالِ تُستخدمُ فِى توليدِ الكهربَاء، ولكنْ هناكَ مَنْ يستخدمهَا فِى الحرُوبِ، وأيضًا الليزر لهُ استخدامَاتٌ سلميةٌ وطبيةٌ كثيرةٌ، ولكنْ هناكَ مَنْ يَستخدمهُ أيضًا فِى الحروبِ».

دونَ «زُويل» بعضَ الملحوظَات التِى سوفَ تتضمنهَا كلمتهُ بعدَ تسلّم جائزَة نُوبل. كانَ يفكرُ فِى سعَادةِ البشرِ، كيفَ تتحققُ، فكّر: «لنْ تتحققَ إلا إذا تحققتِ العدالةُ فِى توزيعِ المعرفةِ فوقَ الكرةِ الأَرْضيةِ، يجبُ أنْ تساعدَ الدولُ المتقدمةُ الدولَ الناميَة حتَّى يتمكّنَ جميعُ البشرِ مِنَ اقتسامِ ثمارِ العلْمِ».

○○○

استقلَّ أحمدُ زويل الطائرةَ المتجهةَ إلى اسْتكْهُولم عاصمَة السُّويد لتسلُّم جَائزتهُ. مَا إن ابتعدَ عَن الأَراضى الأمريكيةِ حتَّى تَوَاردت الخواطرُ والذكرياتُ إلى رَأسه، فكَّر: «تُرَى كَمْ مرةً ركبَ الطائرةَ؟».

نظرَ ناحيةَ النافذة، كانَ لا يذكرُ العددَ، ولكنهُ يذكرُ المرةَ الأُولى التِى ركبَ فيهَا طائرةً. حدثَ هذَا عَام ١٩٦٩، وكانَ بصحْبته زوجَته الأُولى مِرْفت.

لمْ يكنْ قدْ مرّ عَلى زواجهمَا سـوَى أيامٍ قليلـة، وكانَا يتطلّعانِ فِى شَـغفٍ إلىَ أمريكا، أوْ أرْضِ الفرَص، وَلكـنْ هلْ حقًّا هِىَ أرضُ الفرص؟.

فكّـر أحمد زويل: «هـىَ أرضُ الفرصِ لمنْ يريـدُ ذلكَ، ولكنهَا أيضًا أرضُ الشياطِينِ وَالضياعِ لمنْ يذهبُ هناكَ دونَ أنْ يعرفَ أينَ يقفُ، وَلَا مَا هىَ غَايتهُ».

اختلسَ النظرَ إلى زوجتهِ ديمَـا، لقدْ كانَ محظوظًا بلقائهِ بتلكَ المرْأةُ، بعدَ طلاقهِ منْ مرفت بعشْـرِ سنوَاتٍ. عادَ يفكرُ فِى مشْوَارِ حياتـهِ. «لمْ تكنْ أمريكَا هىَ الجنةُ الموعُـودةُ، كانَ يجهلُ الثقافةَ الأمريكيةَ، ولَمْ يكنْ يجيدُ الإنجليزيّة، ولكنهُ كانَ مُصممًا عَلى تجاوُزِ تلكَ العقباتِ لتحقيقِ هدفهِ».

تنـاولَ إحدى الصحفِ مـنْ أمامهِ، ولكنهُ لمْ يقـرأْ كلمةً وعاودَ التفكيرَ. «لمْ يكنْ بعيدًا عنِ المضَايقاتِ، أحيانًا كانَ يلتقِى بالعديدِ منَ العيونِ التِى تُريد أَنْ تشـككَ فِى قُدراتهِ، لَا لشـىءٍ سـوَى أنهُ عربىٌّ قادمٌ منَ الشرقِ الأوسـطِ، ولكنهُ واصلَ الكفاحَ حتىَّ اعترفَ الجميعُ بإنجَازاتهِ».

أفـاقَ «زُويل» عَلـى صوتِ المضيفةِ تعلـنُ وصُولهم إلى مطارِ اسْتكْهُولم.

○○○

كانَ الاحتفـالُ بجوَائزِ «نُوبل» مَهيبًا. اعْتلَى أحمدُ زُويل المنصّةَ فورَ تسلُّمه جَائزته، وَاسْتعدَّ لالقَاءِ كلمته.

اسـتهلَّ الكلمةَ بالإشـارةِ إلى مَغْزى جَائزةِ نُوبل وَالهدفِ النبيلِ مِنْ إنشـائهَا. ثُمَّ قالَ: «لوْ أنَّ جائزةَ «نُوبـل» كانتْ قدْ عُرفت منذُ سـتةِ آلافِ سـنة، حينمَا بزغَتْ حضارةُ مصرَ القديمَة، أَوْ حتَّى قبلَ ألفى عَام حينمَا أنشئَتْ مكتبةُ وجَامعةُ الإسْكندريَّة القديمَة، لكانتْ مصرُ قدْ حَصُلت عَلى جَوَائزِ «نُوبل» فِى العديدِ مِنَ المجَالات»[*].

اسـتمرَّ أحمد زُويل فِى إلقـاءِ خُطبتِه التِى أنهاهَـا بجملةِ طه حسيْن: «ويلٌ لطالبِ العلمِ إنْ رضىَ عَنْ نفسه».

ضجّتِ القاعةُ بالتصْفيقِ وَكانَ «زُويل» يُفكر:

«لَا يوجدُ حدودٌ لإنجَازاتِ العقلِ، هذه مُجردُ بدايَةٍ».

(*) هذه الفقرة من النص الأصلى لخطبة د. أحمد زويل التى ألقاها أثناء تسلمه لجائزة نوبل.